العدد الواحد والعشرون
2004

مجلة كلية

الدعوة الإسلامية

مجلة إسلامية - ثقافية - جامعة - محكمة تصدر سنويا

1372 من وفاة الرسول ﷺ الموافق لعام 2004 مسيحي

- من بلاغة الضمائر في القرآن الكريم
- الفكر الأندلسي والافتراضات الإيديولوجية للنهضة الأوربية
- من أعلام ليبيا (الشيخ أحمد البهلول)
- بصمات يهودية على حركة الاستشراق

الثقافة العربية الإسلامية وتحديات العولمة

دكتور آجقو علي
جامعة بسكرة - الجزائر

ملخص:

العولمة، كما تتبعناها من خلال هذه المداخلة وكما هي مطروحة من قبل المتنفذين في دول المركز وكما تؤكد ذلك دروسها اليومية، المرسلة إلى مختلف جهات المعمورة وخاصة إلى عالمنا العربي الإسلامي، ليست فتحاً إنسانياً مبيناً يبشر بمستقبل أفضل للإنسانية جمعاء، لسبب بسيط كون هذه العولمة لم تتم صياغتها من تلاق متكافئ بين المجتمعات البشرية، وإنما هي تعميم لنموذج وقيم غربية على بقية العالم، لتحقيق رغبة جامحة للغرب بقيادة أمريكا في السيطرة والتسلط سواء بطريقة مباشرة أو عن طريق الشركات العابرة للقارات. وعلى هذا الأساس تكون العولمة في كثير من جوانبها تمثل خطراً على شعوب العالم وتزداد هذه الخطورة على المجتمعات العربية الإسلامية. ومن أجل

مواجهة وضع كهذا يتحتم علينا القيام بحركة نهضوية حضارية شاملة يكون مرتكزها الأساسي مشروعاً ثقافياً قوامه الأصالة والمعاصرة. ولو فعلنا ذلك ـ ونحن نملك أسباب القوة والمنعة ـ لأنقذنا أنفسنا وأنقذنا البشرية وكنا فعلاً خلفاء الله في هذه «القرية الكونية». هل المسؤولون وصناع القرار وكل القوى الحية في أمتنا مستعدون وراغبون في رفع التحدي؟

مقدمة:

لقد بدأت الهيمنة الغربية تتفاقم لتطال جميع مجتمعات العالم سواء بواسطة السيطرة المباشرة والفعل الإلحاقي المتعمد أو بصورة غير مباشرة عبر الروابط الثقافية والاقتصادية حتى وصلت إلى أعلى أطوارها في الحقبة الراهنة حيث تقلصت المسافات بين أرجاء المعمورة بسبب تطور وسائل الاتصال ومن ثمة لم يعد أي مكان في العالم بمعزل عن سواه وفقدت من جراء ذلك هذه المجتمعات قدرتها على الانعزال والحركة المستقلة كلياً عن الآخرين.

ولقد كان الثمن الباهظ لواقع من هذا النوع أن فقدت دول الأطراف[1] القدرة على خلق نهضة تنموية مستقلة تقود إلى اللحاق بالغرب أو على الأقل تحصين الذات أمام حالة الاستلاب والنهب المتواصلتين. حالة التردي هذه تفاقم أمرها بعد فرض دول المركز[2] العولمة الثقافية على دول الأطراف.

والعولمة الثقافية هذه تعني أول ما تعني سلب سيطرة الدول على مجال سيادي هام هو: المجال الثقافي، بغية إحداث خلخلة في البنية الثقافية لتلك الدول مما يساعد بطبيعة الحال على نشر ثقافة العولمة، التي هي السلاح الآخر الذي أخذ تجار العولمة يستخدمونه لامتصاص ثروات الشعوب[3].

---

(1) المقصود بمصطلح دول الأطراف الدول المتخلفة والنامية.

(2) المقصود بمصطلح دول المركز الدول الغربية وعلى رأسها أمريكا.

(3) معاش مرتضى: «العولمة رؤى ومخاطر»، **مجلة النبأ**، عدد 35، السنة الخامسة، 1420/ 2000، ص4.

إن عولمة الثقافة تهدف بالدرجة الأولى إلى إقصاء الثقافات الأخرى عن العالمية بحجة تعارضها وعدم قدرتها على الانسجام مع توجهات الثقافة الغربية المادية، وفي الوقت ذاته القيام بعملية خنق للثقافة العربية الإسلامية وإيقاف خطرها الزاحف على الغرب.

إن مصطلح العولمة يثير من الأسئلة أكثر ما يقدم من الأجوبة وهو يحتاج إلى التوقف عند الأسئلة التي يثيرها لعلها تساعد في تحديد مفاهيمه ومدلولاته، ولتحقيق ذلك كان من الطبيعي لمن يبحث هذا الموضوع أن يتساءل: ما العولمة؟ هل هي ظاهرة جديدة مستحدثة أو أنها لفظ جديد للتعبير عن واقع قديم؟ كيف نتعامل مع هذا الواقع؟ هل نقبل التغيير ونقبل عليه فنتغير معه أو نبقى أنفسنا ونتفتح على الآخرين؟

ومن المناسب حين يود المرء أن يتحدث عن الثقافة والعولمة أن يحدد دلالات هذه المصطلحات، فلعل في ذلك التحديد فائدة تجعله يمضي في الموضوع على بينة مما يريد. ويجعل القارئ أقدر على متابعته ومساءلته عما ينتهي إليه من آراء وما يخلص إليه من نتائج، وما يقدم من اقتراحات وحلول.

I ـ تحديد مفاهيم

وأول ما نتوقف عنده قضية المفهوم حيث نجد أن العولمة الثقافية شأنهما شأن المصطلحات الأخرى الشائعة ما تزال يكتنفها الغموض، حيث يذهب بعض النقاد والمحللين مذاهب مختلفة في فهمها وتعريفها، ومن ثمة تأتي أحكامهم أحياناً غامضة ومتباعدة بسبب غموض منطلقاتهم واختلافهم، حتى أصبح المهتمون بهذا الموضوع يتساءلون هل من الأفضل أن تترك هذه المصطلحات وأمثالها دون تحديد. وأن يتحدث عن بعض مظاهرها ونتائجها وعلاقتها بغيرها، اعتماداً على وُجود قدر مشترك من الفهم بين الباحثين عن هذه المصطلحات، يُتيح توصيل الآراء والتحليلات إلى الآخرين مهما اختلفوا في التفصيلات والفروع.

1 ـ مفهوم العولمة:

إن صياغة تعريف دقيق للعولمة تبدو مسألة شاقة نظراً إلى تعدد تعريفاتها والتي تتأثر أساساً باتجاهات الباحثين والأحكام التي يتبنونها رفضاً أو قبولاً، فضلاً عن أن العولمة ظاهرة غير مكتملة الملامح كما يقول السيد يسين: «وذلك عائد إلى تعدد الاتجاهات التي تتنازع الباحثين الذين تناولوا قضايا العولمة وحاولوا صياغة تعريف لها فمن جهة ليست العولمة نظاماً يعبر عن تطلعات البشر المختلفة، ولا هو موضع اتفاق على سيادته المستقبلية ومن جهة أخرى تختلف المنطلقات التي تتناول هذه الظاهرة بالتعريف فلكل باحث وجهة هو موليها[4] ويضيف السيد يسين قائلاً[5]: «إذا أردنا أن نقترب من صياغة تعريف شامل للعولمة، فلا بد من أن نضع بالاعتبار ثلاث عمليات تكشف عن جوهرها:

العملية الأولى تتعلق بانتشار المعلومات، بحيث تصبح مشاعة بين جميع الناس.

العملية الثانية تتعلق بتذويب الحدود بين الدول.

العملية الثالثة هي زيادة أوجه التشابه بين الجماعات والمجتمعات والمؤسسات.

وكل هذه العمليات قد تؤدي إلى نتائج سلبية بالنسبة لبعض المجتمعات وإلى نتائج إيجابية بالنسبة لبعضها الآخر، والعولمة في أصلها اقتصادية، قائمة على إزالة الحواجز والحدود أمام حركة التجارة، لإتاحة حرية تنقل السلع ورأس المال، ومع أن الاقتصاد والتجارة مقصودان لذاتهما في العولمة، إلا أنها لا تقتصر عليهما وحدهما وإنما تتجاوزهما إلى المجال السياسي، الثقافي والاجتماعي بما تتضمنه من أنماط سلوكية ومذاهب فكرية ومواقف سياسية، وكل ذلك هو الذي يصوغ هوية الشعوب.

---

(4) أسيد يسين: «في مفهوم العولمة»، **مجلة المستقبل العربي**، عدد 228، 1998.

(5) نفس المرجع.

ومن الجدير بالذكر أن استعمال مصطلح العولمة في التداول السياسي قد طرح من قبل العالم الكندي مارشال ماك لوهان، الذي يعتبر أول من أشار إلى مصطلح العولمة عندما صاغ في نهاية عقد الستينيات مفهوم القرية الكونية[6]، وقد تبنى هذه الفكرة من بعده الأمريكي بريجنسكي[7]، الذي أشار إلى أن تقدم أمريكا، التي تمتلك ما يزيد على 65٪ من المصادر الإعلامية، يمكن أن يكون نموذجاً كونياً للحداثة يروج للقيم الأمريكية كالحرية وحقوق الإنسان.

انتشر استخدام مصطلح العولمة بعد ذلك في كتابات سياسية واقتصادية عديدة في العقد الأخير، وذلك قبل أن يكتسب المصطلح دلالات استراتيجية وثقافية مهمة من خلال تطورات واقعية عديدة شهدها العالم منذ أوائل التسعينات. ولتوضيح الصورة لا بد من وقفة نستعرض فيها ما صدر من تعريفات للعولمة:

1 ـ محمد عابد الجابري[8] يعتقد أنها نظام أو نسق ذو أبعاد تتجاوز دائرة الاقتصاد، وأنها نظام عالمي يشمل المال والتسويق والمبادلات والاتصال، كما يشمل أيضاً مجال السياسة والفكر والأيديولوجيات.

2 ـ علي أحمد سليمان[9] تعني العولمة عنده تحقيق اندماج دول العالم الثالث بدرجة أكبر في الأسواق العالمية. ولا يقف هذا الاندماج في الأسواق العالمية عند تصدير السلع فقط، ولكنه يتجاوز ذلك فيشمل الخدمات ورؤوس الأموال.

3 ـ السيد الزيات يرى أن العولمة تعني: «تعميم الشيء وتوسيع دائرته، أو

---

(6) عبودي علي: أوروبا والنزعة الاستعمارية الكامنة، أنترنيت 21 ـ 7 ـ 2002.

(6) نقلاً عن باسيل يوسف: حقوق الإنسان بين العالمية الإنسانية والعولمة السياسية، **مجلة الموقف الثقافي**، العدد 10، 1997، بغداد، ص17.

(7) نفس المرجع.

(8) نقلاً عن السايعي ناصر بن سليمان: البعد الثقافي في لمفهوم العولمة السياسية، **مجلة الموقف الثقافي**، العدد 10، 1997، بغداد، ص17.

(9) نقلاً عن نفس المرجع.

بعبارة أكثر دقة وتحديداً: تعميم نمط من الأنماط الفكرية والسياسية والاقتصادية والثقافية تختص به جماعة ما أو مجتمع معين أو أمة بذاتها على الجميع، أي العالم برمته»[10]. العولمة، وفق هذا التصور، تعني تبني النموذج الأمريكي في المجالات الحياتية المختلفة، أي الأمركة. والتي يشدد عليها توماس فريدمان حين يصرح: «نحن أمام معارك سياسية وحضارية فظيعة، العولمة هي الأمركة».

غير أن ميشال كالوق يرى عكس ذلك في أطروحاته الأربع التالية[11]:

- العولمة لا توحد العالم.
- العولمة الأمريكية تختلف عن عولمة غيرها من البلدان.
- الأمريكيون لا يعرفون جيداً ما إذا كانت العولمة شيئاً إيجابياً أم سلبياً.
- أمريكا لن تكون القوة العظمى.

من خلال ما تقدم من تعريفات يمكن تقديم مفهوم للعولمة يجمع بين مفهومها وخصائصها على النحو التالي: «العولمة هي تلك الحالة أو الظاهرة التي تسود في العالم حالياً، وتتميز بمجموعة من العلاقات والعوامل والقوى، تتحرك بسهولة على المستوى الكوني متجاوزة الحدود الجغرافية للدول ويصعب السيطرة عليها، تساندها التزامات دولية أو دعم قانوني، مستخدمة لآليات متعددة، ومنتجة لآثار ونتائج تتعدى نطاق الدولة الوطنية إلى المستوى العالمي؛ لتربط العالم في شكل كيان متشابك الأطراف، يطلق عليه القرية الكونية»[12].

وكما كان هناك اختلاف بين الباحثين في تحديد مفهوم دقيق للعولمة فقد كان هناك اختلاف في تحديد جذورها التاريخية.

---

(10) السيد الزيات: هل تتلاشى الدولة في ظل العولمة؟، **مجلة تحديات ثقافية**، العدد 181، 1998، نقلاً عن بركات محمد مراد: العولمة.. المفهوم المراوغ، www. almarefah.com1423..

(11) المشرف: العولمة: الحقيقة والأبعاد، ورقة مقدمة إلى مؤتمر العولمة بكلية الشريعة عام 2000، جامعة الكويت، ص2، www.al-ommah.org.

(12) مطر زكريا: العولمة هدم للاقتصاد القديم، أنترنيت 2002.

2 ـ الجذور التاريخية للعولمة:

يتساءل المفكرون والباحثون: هل العولمة مصطلح وليد العشرية الأخيرة من القرن الماضي أم له جذور ضاربة في التاريخ القديم؟ العولمة مثلها مثل أي ظاهرة اجتماعية حياتية لا بد أن تكون متصلة بما قبلها وجسراً لما بعدها، ولا يمكن أن تكون منقطعة الجذور عما قبلها وعما بعدها، ولا بد من أن تحوي عناصر قديمة وأخرى جديدة، وفي الغالب فيها أمور نافعة وأخرى غير نافعة»[13].

الواقع أن قضية الهيمنة قديمة قدم التاريخ الإنساني: فما من قوة تظهر إلا وتريد أن تنفرد دائماً بحكم العالم، وإخضاعه إلى مبادئها: فاليونان والرومان والفرس والامبراطوريات ذات النزعة الاستعمارية الحديثة كلها كانت تتجه هذا الاتجاه في الهيمنة والسيطرة. أوروبا الحديثة ذاتها هي النموذج الواضح في محاولة السيطرة وكسب مناطق النفوذ.

لقد تباينت الآراء حول هذا الموضوع بين المفكرين والباحثين على النحو التالي:

1 ـ هناك من يرى بأن العولمة ليست ظاهرة جديدة، بل بداياتها الأولى ترجع إلى القرن التاسع عشر، مع بدء الاستعمار الغربي، ثم اقترنت بتطور النظام التجاري الحديث في أوروبا، الأمر الذي أدى إلى ولادة نظام عالمي متشابك ومعقد سمي بالعولمة، يذهب آخرون في هذا الإطار إلى أن مصطلح النظام العالمي كان مستخدماً منذ مؤتمر فيينا 1815 الذي قاده مترنيخ وبسمارك في سبعينيات القرن 19، ثم تجدد ثانية على يد كليمنصو في مؤتمر فرساي 1919، ثم تجدد في يالطا 1943 على يد الحلفاء في الحرب العالمية الثانية.

2 ـ باحث آخر يعارض هذه النظرة ويذهب إلى أن العولمة ليست تطوراً عن

---

(13) المشرف، مرجع سابق.

الاستعمار الأوروبي أو ظاهرة الثورة الصناعية، وإنما هي نظام كوني شامل جديد، مواصفاته لا تشبه مواصفات الامبراطوريات السابقة.

3 ـ هناك باحثون يرجعون بدايات العولمة الحالية إلى السياسات التي ارتأت أمريكا أن تسيطر بها على العالم، غير أن الحرب الباردة بينها وبين الاتحاد السوفييتي أجلت تلك الهيمنة إلى بداية التسعينات[14].

4 ـ من جهته يرجع صاحب كتاب فخ العولمة البداية الحقيقية للعولمة إلى عام 1995م؛ حيث وجه الرئيس السوفيتي جورباتشوف الدعوة إلى خمسمائة من قادة العالم في مجال السياسة والمال والاقتصاد في فندق فيرمونت المشهور في سان فرانسيسكو لكي يبنوا معالم الطريق إلى القرن الحادي والعشرين. وقد اشترك في هذا المؤتمر المغلق أقطاب العولمة في عالم الحاسوب والمال وكذلك كهنة الاقتصاد الكبار، وأساتذة الاقتصاد في جامعات ستانفورد وهارفرد وأكسفورد. واشترك فيها من السياسيين، الرئيس الأميركي جورج بوش الأب، ووزير خارجيته شولتز، ورئيسة الوزراء البريطانية مارجريت تاتشر ورئيس وزراء مقاطعة سكسونيا وغيرهم[15].

5 ـ وعلى أساس ظهور الدولة القومية الموحدة في أوروبا، بنى بعض المحللين النشأة الأولى للعولمة: فقد تتبع زولاندرو برتسون[16] البعد الزمني التاريخي العولمة بناء على المراحل التالية:

1 ـ المرحلة الجنينية: وهي الممتدة منذ مستهل القرن 15 حتى منتصف القرن 18 وفيها شهدت أوروبا نمو المجتمعات القومية.

2 ـ مرحلة النشوء: وهي من منتصف القرن 18 حتى عام 1870م وفيها

---

(14) التويجري أحمد بن عثمان: الرؤية الرأسمالية والرؤية الإسلامية: الدين والعولمة والحل الإسلامي (2 ـ 3). مجلة الدعوة، عدد 1725، 1420/ 2000، ص18.

(15) السايعي، مرجع سابق.

(16) نفس المرجع.

تطورت فكرة الدولة المتجانسة الموحدة التي ظهرت في صورة مثل زيادة الاتفاقيات الدولية والمؤسسات الخاصة بتنظيم العلاقات بين الدول.

3 ـ **مرحلة الانطلاق**: التي ابتدأت منذ عام 1870 حتى العشرية الثانية من القرن 20.

4 ـ **مرحلة الصراع من أجل الهيمنة**: وقد استمرت من العشرية الثانية حتى منتصف الستينات من القرن 20 وفيها بدأت الخلافات والحروب الفكرية وركز فيه على القضايا الإنسانية لا سيما بعد إلقاء القنبلة الذرية على هيروشيما ونجزاكي باليابان.

5 ـ **مرحلة عدم اليقين**: وهي المرحلة التالية التي ابتدأت من عقد الستين إلى الوقت الراهن وقد تم فيها إدارج العالم الثالث في المجتمع العالمي وشهدت نهاية الحرب الباردة وازدادت المؤسسات العالمية.

6 ـ وهناك من يفسر العولمة على أنها مبادرة تقدم بها بعض المنظرين في الولايات المتحدة عام 1965 طرحوا فيها ثلاث قضايا[17] جعلوا منها برنامج عمل يضمن للولايات المتحدة الأمريكية الهيمنة والسيادة على العالم وهي:

1 ـ **القضية الأولى**: تتعلق بالسوق العالمية، كأداة لإخلال التوازن بالدول القومية.

2 ـ **القضية الثانية**: تخص الإعلام.

3 ـ **القضية الثالثة**: تتعلق بالسوق كمجال للمنافسة.

وهذه القضايا الثلاث فسرها الجابري بما يلي[18]:

---

(17) نفس المرجع.

(18) نفس المرجع.

1 ـ شل الدول الوطنية.

2 ـ توظيف الإعلام.

3 ـ التعامل مع أفراد العالم بمبدأ البقاء للأصلح.

وبناء على ما تقدم يتبين أن العولمة ليست حدثاً جديداً، بل هي ظاهرة نشأت مع ظهور الامبراطوريات في القرون الماضية. ففي السابق حاولت هذه الأخيرة أن تصبغ الشعوب التي تبسط نفوذها عليها بثقافتها، وتسعى لترسيخ هذه الثقافة في مختلف جوانب حياة هذه الشعوب. وقد عملت هذه الامبراطوريات لتوجيه قيم هذه الشعوب وتقاليدها وحضارتها، وفق أنماط الحياة التي تريدها. فكانت هذه الخطوة نحو العولمة.

وقد لبست هذه العولمة عدة أثواب أخرى، منها الثوب العسكري ومنها الاستعمار، ومنها استنزاف الموارد: فقد قام الشمال باحتلال بلاد الجنوب متعللاً بشتى الأسباب، وعن طريق هذا الاحتلال تحكم في مقدرات البلاد واستنزاف مواردها، وغرس ثقافته فيها، وكانت هذه خطوة أخرى نحو العولمة. واليوم، وقد تفوق الشمال على الجنوب بما حاز من سبق علمي وتكنولوجي، وبما امتلك من وسائل الدمار الشامل، أصبح مصدر الإنتاج في مختلف المجالات، وأصبح الجنوب مستهلكاً لهذا الإنتاج. ولكي يقنن الشمال علاقته مع الجنوب، أطلق نداءه بالعولمة وأخذ بأسباب تحقيقها في مختلف الميادين، رغبة منه في الحصول على المزيد من المكتسبات ولفرض المزيد من السيطرة على بقية الشعوب، وإرضاء نوازع الغرور والاستعلاء[19].

3 ـ مفهوم الثقافة:

الثقافة مفهوم شامل معبر عن نظرة الفرد للإنسان والكون والإله وللآخرين من حوله، ولنمط الحياة والسلوك والعلاقة بين الدين والدولة والقيم، ولذلك فالثقافة تختلف طبيعتها من حضارة لأخرى حيث نجد لكل حضارة خصوصيتها

(19) عبودي، مرجع، مرجع سابق.

الثقافية التي تحدد هويتها سواء من حيث مصدرها ومنبعها أو من حيث غايتها وهدفها. ولكن العولمة تريد أن تصهر كل الثقافات الموجودة في ثقافة واحدة هي الثقافة الغربية التي تعني العولمة عندها فرض منظومتها الثقافية والحضارية، وجعل النموذج الغربي هو النموذج العالمي وهذا ما يعني إذابة الهوية الثقافية للشعوب الأخرى، مستغلة في ذلك التقدم التكنولوجي في مجال الاتصالات وما ترسله إلينا عبر الفضائيات من سيل جارف من المواد الإعلامية[20] والتي يعبر عنها الدكتور مصطفى محمود بقوله[21]: «وما هذه العولمة الثقافية سوى العلف الثقافي الرديء الذي يلقي به الإعلاميون الكبار إلينا، وهذه العولمة هي الاسم الجديد للاستعمار المهين وغسيل المخ المتواصل الذي كتب علينا أن نعيش فيه».

وهناك نوعان رئيسيان من الثقافة[22]:

1 ـ الثقافة السياسية وهي التي تهتم بأمور الناس وقضاياهم المصيرية، وبالذات فيما يرتبط بالحريات، كحرية الرأي والتصويت أو كحرية الممارسة الدينية وغيرها.

وتنقسم الثقافة وفق مفهومها هذا إلى قسمين:

أ ـ ثقافة تدفع الناس نحو التحرك والانطلاق والسعي الجاد للتغيير والإصلاح.

ب ـ ثقافة تقتل في الناس روح التحدي وتكرس فيهم روح التبعية والخوف والاعتراف بالأمر الواقع على مرارته.

2 ـ الثقافة الاجتماعية، وهي تتلخص في الأعراف والتقاليد التي يبني عليها المجتمع حياته بما يضمن سعادته ورقيه في ظل قوانين يتمسك بها الجميع

---

(20) سعد الدين صالح، «العالم العربي وتحديات العولمة ـ 3»، جريدة البيان، السبت 5 جمادى الآخرة 1419/ 26/ 9/ 1998.

(21) نقلاً عن نفس المرجع.

(22) السايعي، مرجع سابق.

من دون وصاية من أحد، وهناك أيضاً نوعان من الثقافة الاجتماعية:

أ ـ ثقافة تدعو وتحث باتجاه تحكيم القيم والمثل النبيلة كالتعاون والترابط والألفة.

ب ـ ثقافة تشد الناس نحو السلبية والتفكك والانعزال وزرع روح الهزيمة في النفوس.

ولكي تكون الثقافة عنصراً هاماً وبناء لا بد من أن تكون متكاملة بمعنى أن تكون ثقافة سياسية واجتماعية للعلاقة الجدلية التي تربطهما، وأن تدفع الناس باتجاه القيم السامية وتحرك فيهم روح المسؤولية والعطاء من أجل تغيير الواقع المتردي، وإصلاحه: فالإصلاحات الاجتماعية عادة لا تصبح مجدية إلا عندما تحركها ثقافة صادقة نشطة[23].

ومن خلال هذه الدلالات يمكن تحديد أبعاد مفهوم في اللغة العربية[24]:

1 ـ أنه ينبع من الذات الإنسانية ولا يُغرس فيها من الخارج، أي أن الثقافة تتفق مع الفطرة، وأن ما يخالف الفطرة يجب تهذيبه، فالأمر ليس مرده أن يحمل الإنسان قيماً بل مرده أن يتفق مضمون هذه القيم مع الفطرة البشرية.

2 ـ أنه يعني البحث والتنقيب والظفر بمعاني الحق والخير والعدل، وكل القيم التي تُصلح الوجود الإنساني.

3 ـ أنه يركز في المعرفة على ما يحتاج الإنسان إليه طبقاً لظروف بيئته ومجتمعه، وليس على مطلق أنواع المعارف والعلوم.

4 ـ أنه عملية متجددة دائماً لا تنتهي أبداً.

وهذه النظرة القائمة على مبدأ التنوع الثقافي هي اليوم من مبادئ القانون الدولي: فقد جاء في المادة الأولى من إعلان مبادئ التعاون الثقافي الدولي، أن

---

(23) آل جميع حبيب، العولمة في المجال الثقافي ـ وجهة نظر نقدية ـ مجلة النبأ، عدد 27، بيروت، www.annaba.com.

(24) السايعي، مرجع سابق.

لكل ثقافة كرامة وقيمة يجب احترامها والمحافظة عليهما، وأن من حق كل شعب وواجبه أن ينمي ثقافته، وأن جميع الثقافات تشكل بما فيها من تنوع خصب، وتأثير متبادل، جزءاً من التراث الذي يشترك في ملكيته البشر جميعاً.

ووفقاً لمضامين هذا النص، ألا تعد عولمة الثقافة بمفهومها الغربي انتهاكاً صريحاً لمبادئ القانون الدولي؟

وكما هو الحال بالنسبة لمفهوم العولمة فليس هناك في الواقع مفهوم محدد لمعنى الثقافة ومن ثمة فهي تختلف من مفكر إلى آخر على النحو التالي:

- دافيد روتكويف يعرفها بأنها «نموذج كلي لسلوك الإنسان ونتاجاته المتجسدة في الكلمات والأفعال وما تصنعه يداه، وتعتمد على قدرة الإنسان على التعليم ونقل المعرفة للأجيال التالية[25].
- محمد عابد الجابري يرى بأنها «ذلك المركب المتجانس الذكريات والتطورات والقيم والرموز والتعبيرات والإبداعات والتطلعات التي تحفظ لجماعة بشرية تشكل أمة أو ما في معناها، بهويتها الحضارية، في إطار ما تعرفه من تطورات بفعل ديناميتها الداخلية وقابليتها للتواصل والأخذ والعطاء[26]

ومن خلال هذه التعريفات يمكن تحديد المعالم التالية للثقافة:

- الثقافة لا تقتصر على مجرد المعلومات والتصورات الذهنية لدى كل فرد، بل تطال مجموع الشخصية الإنسانية ومدى تفاعلها مع البيئة والكون..
- الثقافة لا تعكس تصوراً فردياً محضاً، بل هي صورة لمجتمع كامل وأمة بأسرها.
- الثقافة تعبر عن الخلفية الإنسانية التاريخية، وهي في الوقت ذاته إحدى طموحات النفس البشرية.

وإذا كانت العولمة في معناها البسيط تعنى تعميم الشيء وتوسيع دائرته

---

(25) نفس المرجع.

(26) نفس المرجع.

فشأن الثقافة أوغل في هذا الميدان لأن التأثير الثقافي أسرع من أي تأثير آخر، وذلك بحكم التفاعل مع الغير، ولذا يرى دافيد روتكويف أن طغيان ثقافة واحدة وعالمية وتهديد ثقافة المرء يصبح تهديداً لدينه وأسلافه، ومن بعد تهديداً لجوهر هويته[27].

II ـ عولمة الثقافة

ليس خافياً على أحد اليوم أن المجال الثقافي هو أحد أهم مظاهر العولمة وهو ما أطلق عليه البعض نظام التحكم الاجتماعي في سوق المجتمعات[28] ومن هنا يتفق عديد الباحثين على أن الثقافة من أخطر الوجه الحضارية المتأثرة بالعولمة، وفي هذا الصدد يقول سيار الجميل: «ولم ينحصر المر في الاقتصاديات المعولمة بل طالت وبسرعة شديدة ونسبية عالية هذه العولمة ثقافات الشعوب وقيمها وعاداتها»[29].

1 ـ وسائل عولمة الثقافة:

يعتمد النظام العالمي الجديد، في سعيه لعولمة ثقافته على عدد من الوسائل يمكن اختصاره بعض منها في النقاط التالية[30]:

1 ـ ثقافة الاختلاط وعدم التفريق بين الرجل والمرأة بصورة تكاد تكون مطلقة.

2 ـ عولمة التجارة والاقتصاد القائمين على الفائدة، التي هي مصطلح النظام للتعبير عن الربا.

3 ـ الفصل بين الدين وأنظمة الحياة المختلفة، حتى لا يشكل الدين عائقاً أمام حركة التغيير والتطور في المجتمعات المعولمة.

---

(27) نفس المرجع.

(28) نفس المرجع.

(29) نفس المرجع.

(30) عن نفس المرجع.

4 ـ الإبهار العلمي والتكنولوجي، واتخاذ التطور في هذين المجالين دليلاً على صحة التوجه في المجالات الحياتية المختلفة.

هذه هي أهم الوسائل المعتمدة من قبل دول المركز في تسويق أو فرض العولمة التي تريدها.

2 ـ أهداف عولمة الثقافة:

هذه الأهداف يمكن تلخيصها فيما يلي:

- خدمة السيادة المركزية، والهيمنة الغربية، وتوطيد معاني العولمة الاقتصادية والسياسية، ونقل هذا النموذج الثقافي العالمي إلى باقي الشعوب الأخرى.
- توحيد الثقافة العالمية، وصهرها في ثقافة واحدة، وإلغاء التعددية الثقافية وحق التنوع الثقافي.
- نزع الخصوصية الفردية ومحو الهوية الذاتية للمجتمعات خاصة العربية الإسلامية، ولذلك نرى أن أنصار العولمة لا يعترفون بالهوية الشخصية سواء هوية الفرد الواحد أو المجتمع الواحد أو الدولة الواحدة.
- تحطيم كل الثوابت الدينية والفكرية والأخلاقية للوصول إلى بناء إنسان هامشي يذوب في بحر المادية.

3 ـ دعائم عولمة الثقافة:

يمكن إجمال هذه المرتكزات في النقاط التالية:

1 ـ القطب الواحد: إن انهيار الاتحاد السوفييتي فسح المجال أمام الغرب لنشر مبادئه في كل المجتمعات الأخرى: فأصبحت قيم السوق، التجارة الحرة، الانفتاح الاقتصادي، التبادل التجاري، انتقال السلع ورؤوس الأموال، تقنيات الإنتاج والأشخاص والمعلومات هي القيم الرائجة. لقد تولت أمريكا قيادة هذا القطب وراحت تفرض هذه المبادئ عن طريق المؤسسات الدولية وعن طريق الاتفاقيات الدولية التي تقرها تلك المؤسسات كاتفاقية القات: لقد كان من نتائج

ذلك أن أصبح هناك 20% من دول العالم تستحوذ على 85% من إجمالي الإنتاج العالمي وعلى 84% من التجارة العالمية ويمتلك مواطنوها 85% من مجموع المدخرات العالمية[31].

2 ـ الثورة العلمية: المتمثلة في وفرة المعلومات وتراكمها وإتاحتها للاستعمال عبر شبكة المعلومات ولعل أهمها الحاسب الآلي، ومن المهم الاعتراف بأن «المعرفة سلطة وأداة هيمنة، وأن من يملك المعرفة وأدوات توزيعها والقدرة على توظيفها يملك سلطة التحكم في العقول التابعة: فعلى سبيل المثال نصيب أمريكا من السوق العالمية من برامج الكمبيوتر سابقة التجهيز سنة 1994م 60%، ونصيبها من سوق الكتب العالمية عام 1995 32%[32] هكذا تصبح تكنولوجيا المعلومات والاتصالات أهم مصدر من مصادر الثروة بل «روح عصر العولمة وعمودها الفقري»[33].

3 ـ إلغاء حدود الدول: والذي يعني عدم الاكتراث بالحدود المحلية للدولة، مما يسهل حركة التنقل بين دولة وأخرى سواء في ذلك السلع والخدمات أو القوى البشرية. غير أن الغريب في الأمر أن دول المركز أي الدول الراعية للعولمة سارت في عكس هذا الاتجاه عندما أغلقت أبوابها وحدودها أمام الهجرات القادمة من دول الأطراف، وسعت نفس تلك الدول إلى «تطبيق سياسة الانتقاء في سرقة العقول والكفاءات»[34].

4 ـ وسائل الإعلام: وتتخذ هذه الركيزة ثلاث وجهات:

1 ـ تكنولوجية الوسيلة ذاتها بحيث تؤدي عملها على أوسع نطاق.

2 ـ المادة التي تنشرها وتبثها هذه الوسائل، وهو ما يمكن أن يطلق عليه

---

(31) المشرف، مرجع سابق.

(32) التويجري عبد العزيز بن عثمان: «الهوية والعولمة من منظور حق التنوع الثقافي»، **رسالة التقريب**، عدد 1420، 23/ 1999، ص123، نقلاً عن السابعي نفس المرجع.

(33) المشني عوني: العولمة في الخطاب العربي المعاصر، أنترنيت 2002.

(34) معاش مرتضى: «العولمة رؤى ومخاطر»، **مجلة النبأ**، عدد 35، السنة الخامسة 1420/ 2000، ص30.

عولمة الإنتاج الفني، وقد تجاوزت وسائل الإعلام الصحف والمجلات والأشرطة إلى القرص الفضائي وشبكة الأنترنيت العالمية.

3 ـ عولمة الإعلام ذاته والمتمثلة في الوكالات العالمية للأنباء إذ نجد مثلاً أن أربع وكالات أنباء عالمية غربية تحتكر وحدها الخبر وتصوغه بكل حرية[35].

ومما تجدر الإشارة عليه في هذا الصدد أنه رغم كل تأثيرات الإعلام الغربي والأمريكي في نشر وتكريس نمط الثقافة الغربية والأمريكية في الفضائيات والإنترنيت والأفلام والمجلات غير ذلك، فإن الدعوات المضادة لثقافة العولمة المادية الإلحادية، ما تزال تستقطب أنصاراً جدداً في غير مكان في العالم، وهذا يؤكد مرة أخرى على تلازم التحولات العولمية مع ازدياد تحولات الممانعة والمقاومة لها[36].

5 ـ اللغة: إذا كانت اللغة هي أداة التفاهم والتواصل ونقل الأفكار، فهي في الوقت نفسه أداة مهمة تعتمدها قوى العولمة في بسط هيمنتها الثقافية: ففي هذا الصدد يشير الكاتب صامويل هانتينجتون[37] إلى أن العالم يتوجه نحو حرب حضارية تكون فيها القيم اللغوية والرمزية هي الحدود القتالية، ويذهب السياسي الفرنسي بينو في نفس الاتجاه عندما يقول[38]: «لقد خسرت فرنسا امبراطورية استعمارية، وعليها أن تعوضها بامبراطورية ثقافية» وتحقيقاً لهذه الرغبة بدأت القوى الكبرى منذ أمد في تكريس هيمنة لغات معينة، والترويج لها باعتبارها

---

(35) هذه الوكالات هي:
ـ الوكالة المشتركة للصحافة (أسوسايتد برس) الأمريكية وهي أعظم وكالة أنباء عالمية.
ـ الوكالة المتحدة للصحافة (يونايتد برس) الأمريكية.
ـ رويتر الإنجليزية.
ـ فرانس برس الفرنسية.

(36) ريفو بوك: توالد العولمة: التحولات والممانعة، خدمة كمبردج، انترنيت 17 ـ 1 ـ 2001.

(37) موسى عبد الله: «رؤيتنا الثقافية وتحديات العولمة»، **مجلة النبأ**، عدد 59، 1422/ 2001.

(38) نفس المرجع.

لغات العلم والعمل، حتى بات يعتقد أن اللغات الأنقلو سكسونية هي سر التقدم، ومن المؤشرات الدالة على بداية الصراع اللغوي[39]:

1 ـ التنافس الرهيب في مجال المعلوماتية وشبكات الإنترنيت ومحطات الإرسال التلفزيوني بلغات معينة ومحدودة مما يحاصر كثيراً بعض اللغات الأخرى خاصة ذات الطابع المحلي.

2 ـ العمل على إنتاج ثقافة استهلاكية، تخدم النظام العالمي الجديد، وتوجه المقومات الأساسية لدولة ما وتقلص من خصوصيتها.

3 ـ محاولة إضعاف اقتصاديات بعض الأمم من أجل تقزيم حضارتها، وإضعاف لغاتها مع تشجيع الأقليات اللغوية، ودفعها إلى خلق صراعات داخلية.

4 ـ التأثير في ذاكرة الأمة، بالسعي إلى طمس تراثها الثقافي الأصيل ومحاولة تشويهه.

5 ـ استغلال صدمة الحداثة من أجل تحقيق العولمة، وتصدير ثقافات معينة للغات معروفة بوسائل متطورة إلى شعوب لا تقوى على مواجهتها، مما يؤدي في النهاية إلى الاستسلام والتقاعس.

وما نراه اليوم من طغيان للثقافة الغربية تشكل اللغة نسبة عالية من المساهمة فيه: فعلى سبيل المثال نلاحظ أن 88% من معطيات الإنترنيت باللغة الإنجليزية و9% بالألمانية و2% بالفرنسية و1% يوزع على بقية اللغات الغربية[40].

وهناك دعائم أخرى للعولمة مثل مناهج التعليم ومراكز الأبحاث العلمية، ودعوات التنصير، وأعمال بعض المستشرقين وغير ذلك مما يسهم في بناء هذه العملية التكاملية.

---

(39) نفس المرجع.

(40) السايعي، مرجع سابق.

III ـ آثار العولمة

هذا وإذا انتقلنا إلى مجالات التأثيرات المباشرة للعولمة الثقافية نجد أنها تنال بعمق في أهم مكونين للسياسة الثقافية الفردية والجماعية وهي التربية، التعليم والتكوين وذلك راجع لهشاشة البنية التحتية لهذا القطاع في مجتمعاتنا العربية الإسلامية.

1 ـ على الحقوق الثقافية للشعوب:

وأما بخصوص آثار العولمة على الحقوق الثقافية فسوف نجد الأمر أكثر تعقيداً وأكثر إثارة للجدل بين الخصوصية والعالمية وبين ما هو محلي وما هو عالمي وبين التعددية والأحادية في نظرة شاملة لما هو كوني. فالقيم الراسخة في ضمير الشعوب هي التي تشكل رؤيتها ونظرتها للعالم ومن هنا تأتي أهمية الثقافة بالنسبة لقضية العولمة.

ووفقاً للمواثيق الدولية، فللإنسان الحق في التمتع بثقافته الخاصة واستخدام لغته والمجاهرة بدينه أي أن تكون له خصوصيته الثقافية التي تعني الاختلاف والتميز.

غير أن التفاوت الهائل في الإمكانيات الثقافية التي ارتبطت ببعض الحضارات يثير الكثير من المخاوف لما في ذلك من تهديد لثقافات مجتمعات أخرى لا تملك هذه الإمكانيات، وهذا ما سيجعلها دوماً في وضعية المتلقي: فقد ذكرت إحصائيات منظمة اليونسكو أن شبكات التلفزيون العربية، تستورد ما بين ثلث إجمالي البث كما في سوريا ومصر ونصف هذا الإجمالي كما في تونس والجزائر، أما في لبنان فإن البرامج الأجنبية تزيد على ذلك حيث تصل النسبة إلى 58% من إجمالي البث، و96% من مجموع البرامج الثقافية.

ولا شك أن هذه الأوضاع تثير مخاوف الكثيرين لا في العالم العربي الإسلامي وحسب بل في مناطق كثيرة من العالم كأوروبا واليابان باعتبارها تشكل خطراً على الأمن الثقافي للمجتمعات المختلفة.

2 ـ على الثقافة العربية الإسلامية:

تعتبر ثقافة كل أمة على صلة وثيقة بدينها وتراثها الثقافي والحضاري، وأن تخلي الأمة عن ثقافتها هو جزء من التخلي عن دينها تراثها. وهذا ما تهدف العولمة الثقافية وأبواقها إلى تحقيقه وتكريسه على أرض الواقع.

وعلى هذا الأساس، فالثقافة العربية الإسلامية تقوم على أصول تختلف، بل تتعارض مع أصول الثقافة الغربية: فإذا كانت الأولى تقوم في المقام الأول على عنصر التوحيد مصداقاً لقوله تعالى: ﴿فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾[41]، فإن الثانية إما أنها تقوم على الشرك، وهو ما عبر عنه قوله تعالى: ﴿وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ قُلْ سَمُّوهُمْ﴾[42]، وإما أنها تقوم على الكفر والإلحاد، كما عبر عنه قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ بِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَلَا بِٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ﴾[43].

ومن جهة أخرى، ونتيجة لاختلاف المنطلقين بين الثقافة الغربية والثقافة العربية الإسلامية فقد سمحت المجتمعات الغربية لمؤسساتها أن تتبنى حقائق وأعرافاً أخلاقية تقوم على النسبية لايحدها ولا يوقفها سوى قبول أفراد المجتمع لها: فهي حقائق وأخلاق صحيحة إذا رضي عنها أفراد المجتمع، وهي غير صحيحة إذا لم يرض عنها أحد، بينما تعتمد الثقافة الإسلامية على حقائق وأخلاق ثابتة، كما جاء في قوله تعالى: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟﴾[44]

ولا ريب في أن الثقافة التي تعتمد على أصول متغيرة، كالثقافة الغربية، تختلف عن الثقافة العربية الإسلامية التي تعتمد على أصول ثابتة: فسيبقى على سبيل المثال لا الحصر تعاطي الخمر وجميع المسكرات مرفوضاً في الثقافة

---

(41) سورة المؤمنون، الآية: 116.

(42) سورة الرعد، الآية: 33.

(43) سورة سبأ، الآية: 33.

(44) سورة الحشر، الآية: 7.

العربية الإسلامية، بينما تغير الموقف بالنسبة لهما في الثقافة الغربية خصوصاً، وفي الثقافات الأخرى عموماً.

هذه الطبيعة المميزة للثقافة الغربية والقائمة على نسبية الحقائق تمثل تهديداً للثقافة العربية الإسلامية: فنسبية الحقائق التي تروج[45] لها ثقافة العولمة تتعارض مع ثوابت ثقافتنا القائمة على الحقائق الثابتة.

وأخيراً فإن الثقافة العربية الإسلامية تقوم على عدم الفصل بين الدين والدولة، بينما تقوم الثقافات الغربية الحديثة، على أن الدين من جملة القضايا الشخصية، ومن ثمة إحلال روابط أخرى مختلفة محل الرابطة الدينية، تتمحور حولها الشعوب الغربية.

إذا كانت العولمة بصورة عامة تهدف لإخضاع الشعوب الأخرى لسيطرتها فالعولمة المؤمركة تتجه بصورة خاصة إلى إخضاع البلدان الغربية لسيطرتها على نحو أشد مما فعلت بعد الحرب العالمية الثانية؛ ولهذا يشعر قادة غربيون أوروبيون كثيرون، وكذلك يابانيون، ومعهم فئات واسعة من المثقفين أن العولمة المؤمركة تهدد ثقافاتهم وهوياتهم، كما يؤكد ذلك الرئيس الفرنسي السابق فرانسوا ميتيران حين يقول: إن من يفقد ثقافته وهويته يفقد سيادته واستقلاله».

هذا التوجه الخطير يظهر جلياً في مفاوضات القات، حيث عوملت الثقافة ومؤسساتها كمعاملة السلع المادية، وهذا ما أسماه البعض بتحويل الثقافة إلى سلعة، وبتحويل المؤسسات الثقافية إلى البيع والشراء في السوق لمن يدفع أكثر، وهذا يعني رفع الحماية المحلية عنها لكي يسهل بيعها للمؤسسات المالية العالمية التي تضعها في خدمة العولمة المؤمركة. إذن نحن أمام خطر تحويل

---

(45) لقد دعم الغرب كل من يقول بنسبية الحقائق ويروج لها في الثقافة العربية الإسلامية: فقد امتدح بللترو وكيل وزارة الخارجية الأمريكية الأسبق ثلاثة من الكتاب العرب، ودعا إلى ترويج كتاباتهم واعتمادها وهم: محمد شحرور السوري، محمد سعيد العشماوي المصري ومحمد أركون الفرنسي، وإن ما يجمع هؤلاء الثلاثة هو قولهم بنسبية الحقيقة، المرشد، مرجع سابق.

الثقافة نفسها ومؤسساتها إلى سلعة وأمام إشاعة ثقافة العولمة ذات الطابع المؤمرك والمتجهة إلى إقصاء الثقافات الأخرى، وذلك ليس من خلال قيمتها الثقافية أو منافستها الثقافية، وإنما من خلال قوتها المالية وقدرتها على الإنتاج والتوزيع.

ومن هنا فإن المعركة في المجال الثقافي سواء أكانت من جانب العولمة وأبواقها أم من جانب معارضيها ستحتدم أكثر فأكثر مع تغلغل العولمة ومحاولتها السيطرة على المراكز الثقافية والإعلامية والتعليمية: فقد بدأت أولى طلائع هذه المعركة تبرز في مجال الهجمات ضد الثقافة العربية الإسلامية، وضد كل القيم التي تحافظ على العائلة، الأخلاق، وتعارض دعوات الانحلال والتفسخ.

3 ـ المواقف المختلفة من تحديات العولمة للثقافة العربية الإسلامية:

أدى الإختلاف في المواقف حول العولمة إلى تباين اتجاهات التعامل معها: فهناك اتجاه رافض لها بالكامل على أساس أنها خطر يهدد الأمة العربية الإسلامية في كيانها وثوابتها، وهناك اتجاه يقبل بالعولمة من دون تحفظ باعتبارها السبيل للتقدم واللحاق بالركب العالمي. هل في هذين الموقفين يكمن الحل؟ الإجابة على هذا السؤال تبدو غاية في التعقيد: فلا الانغلاق عما يجري في العالم ممكن ومتاح، وليس صحيحاً كل الصحة لو كان ممكناً ولا الانخراط الكامل والسريع بلا ضوابط في نادي العولمة مجد هو الآخر، بل إن الآثار السلبية الناجمة عن هذا التوجه لا تقل خطراً عن التوجه الآخر الرافض للعولمة جملة وتفصيلاً.

ويمكن تلخيص الوضع القائم في البلدان العربية الإسلامية فيما يخص الجانب الثقافي في التالي[46]:

1 ـ غياب التصور الكامل لأصول ومفردات هذه الثقافة، والاختلاف حول بعضها.

---

(46) السايعي، مرجع سابق.

2 ـ عدم توظيف جميع مفردات هذه الثقافة في مجالات التعليم، التربية، الإعلام، التجارة، الاقتصاد والسياسة.

3 ـ عدم وجود أجهزة ثقافية وإعلامية كافية ومؤهلة قادرة على تقديم البديل المنافس للثقافات الأخرى، التي تتعارض مع الثقافة العربية الإسلامية وإن وجدت فهي تقدم هذه الثقافة بصورة مشوهة في أغلب الأحيان.

وإذا ما أردنا مواجهة عولمة الثقافة الغربية المتعارضة مع ثقافاتنا، فلا بد للدول العربية الإسلامية من معالجة هذا الوضع، وإيجاد وضع بديل قوي يتلافى النقائص الموجودة ويهيئ الدول المذكورة ليس فقط لمواجهة العولمة الوافدة بل لإحداث عولمة عربية إسلامية، كما أحدث المسلمون في القرون الإسلامية الأولى عولمة للإسلام وثقافته وصلت إلى مختلف مناطق العالم المعروفة آنذاك.

4 ـ عوامل نجاح مواجهة الثقافة العربية الإسلامية لتحديات العولمة:

ليست الآفاق قاتمة دائماً إذ لا يوجد هناك حتمية اجتماعية مطلقة تفرض على الإنسان أن يستسلم إلى مسلخ العولمة، بل إن هذه التحديات تثير في الإنسان روح المقاومة والتفاعل الإيجابي من أجل استثمار هذه الظاهرة في اتجاهاتها المفيدة: فمقاومة العولمة وكيفية التعامل معها ينبغي أن تتأسس على قاعدة علمية وتكوين فهم معرفي بها، وهذا الذي لم يتحقق: فمهاجمة العولمة أو رفضها أو التخويف منها لا يكوِّن علماً ولا يؤسس فهماً ولا يبني تحصناً ولا يعالج مشكلة ولا ينتج بديلاً، لذلك فإن المطلوب دراسة العولمة بشكل معمق ومستفيض، وبالعلم والمعرفة نستطيع أن نمتلك قدرة التحكم في إدارة أوضاعنا وتسيير شؤوننا وضبط حركتنا في ظل العولمة، والنظر العلمي للعولمة يستدعي التمييز بين الجانب العلمي[47] في العولمة، وبين الجانب الأيديولوجي أو

(47) المقصود بالجانب العلمي تلك الأبعاد المتصلة بالعلم ومنجزاته كثورة المعلومات وشبكات الاتصالات وتكنولوجيا الإعلام والبث الرقمي والاتصال عبر الأقمار الاصطناعية إلى غير ذلك.

التوظيفي[48] للعولمة، كما أن العولمة تستدعي تكوين فهم جديد للعالم، والنظر للقضايا والمشكلات المختلفة والمتعددة بمنظور عالمي.

ولتحقيق هذه الغاية لعالمنا العرب الإسلامي هناك طرح متكامل يتمثل فيما يلي:

1 ـ فهم ظاهرة العولمة:

إن فهم ظاهرة العولمة لا يتأتى إلا عبر تحقق عدة أمور:

1 ـ الوعي بحقيقة الرسالة الإسلامية وعالميتها وشموليتها وأنها تختلف شكلاً وجوهراً ومقصداً عن كل الحضارات والثقافات الأخرى: فعالمية الإسلام تعني قابليته لاستيعاب كل الاتجاهات وكل المتغيرات والمستجدات. ولا يتأتى هذا الفهم إلا بتصحيح المسيرة التي ينتهجها الغالب الأعم من أبناء الإسلام والمنتمين إليه في صور منها:

2 ـ تصحيح فهم عالمية الإسلام باعتباره دعوة إنسانية موجهة للناس كافة، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةٗ لِّلنَّاسِ بَشِيرٗا وَنَذِيرٗا﴾[49].

3 ـ ممارسة الاجتهاد والإقبال على التجديد في الموائمة بين الواقع والنص الشرعي بشكل يضمن للنص حقه وللحياة نصيبها، وفق المنطق القرآني: ﴿وَٱبۡتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلۡأٓخِرَةَۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنۡيَاۖ وَأَحۡسِن كَمَآ أَحۡسَنَ ٱللَّهُ إِلَيۡكَۖ وَلَا تَبۡغِ ٱلۡفَسَادَ فِي ٱلۡأَرۡضِۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُفۡسِدِينَ﴾[50].

4 ـ إعادة قيم الحرية والشورى إلى مكانهما الصحيح من التصور الإسلامي.

5 ـ إدراك خطورة العولمة المتمثلة في كونها طوفاناً لا يمنع منه إلا سد منيع

---

(48) المقصود بالجانب الأيديولوجي أو التوظيفي تحويل تلك الوسائل والمنجزات لخدمة أهداف ومصالح وبرامج واستراتيجيات متحيزة أو غير أخلاقية أو غير عادلة.

(49) سورة سبأ، الآية: 28.

(50) سورة القصص، الآية: 17.

مبني على أسس متينة لا يتأثر معها بعوامل الزمن والبيئة.

6 ـ الاستفادة من الإيجابيات التي يحملها نظام العولمة استفادة موجهة بقدر ما يتيح لنا كسب المهارات العلمية والتكنولوجية والاطلاع على عوامل القوة وأسبابها.

7 ـ عدم الإقرار بالقبول العالمي للعولمة أو بقدرتها على الهيمنة فإن من مخاوف خبراء الاقتصاد العالمي مثلاً تأكيدهم على أن إزالة الحدود يعبد الطرق أمام دول العالم الثالث للخروج من مأزق الفقر والتخلف للالتحاق بركب البلدان الصناعية[51].

مراقبة المنتجات الثقافية:

وإذا كانت كثير من الدول الأوروبية والآسيوية قد حدت من دخول كثير من المنتجات الثقافية الأمريكية حفاظاً على أنماطها الاجتماعية والثقافية، فإن الحفاظ على الدين والأخلاق والقيم يجب أن يكون في طليعة اهتماماتنا، ومن الأمثلة على ذلك:

1 ـ أصدرت فرنسا وكندا قوانين تحظر نشر كثير من المواد الأمريكية ونقلها وحذت حذوهما كل من الصين وسنغافورة[52].

2 ـ رفضت فرنسا التوقيع على الجزء المتعلق بالسلع والمواد الثقافية في اتفاقية القات وندد وزيري الثقافة الفرنسي واليوناني بموقف الولايات المتحدة لنشر المواقف الأمريكية[53].

3 ـ عولمة الثقافة الإسلامية:

تمتلك الأمة العربية الإسلامية ثقافة قوية تؤهلها للمشاركة في عولمة

---

(51) السايعي، مرجع سابق.

(52) نفس المرجع.

(53) نفس المرجع.

الثقافة من دون خوف أو تردد إذا ما هيّأت حكومات هذه الدول الاستعدادات العلمية والفنية والبشرية لإحداث العولمة المطلوبة. وفي هذا السيق هناك عدداً من الأمور الأساسية التي تكفل انتقال الأمة العربية الإسلامية من وضع المتلقي فقط للعولمة الوافدة والغازية إلى حال المرسل المشارك في عولمة الثقافة، بهدف المنافسة والتغلب على الثقافات الأخرى. إن عولمة الثقافة العربية الإسلامية، لا يدخل في دائرة الضرورية فحسب، بل يدخل في دائرة الواجب الشرعي، انطلاقاً من واجب نشر الإسلام وإيصاله إلى جميع مناطق العالم تأكيداً لقوله تعالى: ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى﴾[54].

والواقع أنه لا خيار لنا لا من الناحية الشرعية، ولا من الناحية الواقعية، ألا نخطط لعولمة ثقافتنا، ولكن هذه العولمة تتطلب إصلاح الوضع على مستوى الداخل حتى نكون مؤهلين لمخاطبة الخارج. ولتحقيق ذلك لا بد من الاهتمام بتحقيق الخطوات التالية[55]:

1 ـ صياغة دقيقة لأطر الثقافة العربية الإسلامية العامة وذلك بالرجوع إلى مصادرها الأساسية وتحقيق إجماع عربي إسلامي في هذا الشأن.

2 ـ إعادة بناء الهياكل التنظيمية والإدارية في الدول العربية الإسلامية وفقاً لهذه الأطر الثقافية لتكون ثقافة هذه الهياكل ثقافة عربية إسلامية.

3 ـ إعادة صياغة مناهج التربية والتعليم في جميع المراحل التعليمية وفقاً لهذه الأطر الثقافية حتى يكون خريجو هذه المؤسسات مؤهلين لنشر الثقافة العربية الإسلامية داخلياً، وقادرين على المشاركة في عولمتها خارجياً.

4 ـ إعادة بناء السياسات الإعلامية، على جميع الأصعدة والوسائل، لتمثل الثقافة العربية الإسلامية أصدق تمثيل، ولتكون قادرة على خدمة هذه الثقافة وعولمتها.

---

(54) سورة يوسف، الآية: 108.

(55) الميلاد زكي: التحديات الثقافية التي تواجه الأمة الإسلامية في عصر العولمة الجديد، www.al-mansouria.com.

5 ـ إعادة بناء الهياكل السياسية، الإدارية، الاقتصادية والتجارية في الدول العربية الإسلامية، وفقاً للثقافة العربية الإسلامية، وإزالة جميع المتناقضات معها أو الدخيلة عليها في هذه الهياكل.

6 ـ خلق قواعد متينة للبحوث العلمية والمعلومات والمشاركة الفعالة في تطوير التقنية إلى المستوى الذي يجعل الأمة العربية الإسلامية مشاركاً حقيقياً في هذه المجالات بدلاً من أن تلعب دور المتلقي فحسب لأن: «الأمة التي لا تبدع لنفسها أفكارها ـ وفق ثقافتها ـ وتثق بها وتعلي من شأنها لن تكتشف ذاتها وطريقها إلى المستقبل»[56].

7 ـ إشراك جميع القادرين من أبناء الأمة في عملية صنع القرار، على جميع الأصعدة والمستويات وفقاً للنظام الإسلامي يضاف إلى ذلك ضرورة عدم الانبهار بالإنجازات المادية للحضارة الغربية كما يؤكد ذلك الإسباني لويس روخاس، أستاذ علم النفس في كلية الطب في جامعة غرناطة حين يقول في ندائه التحذيري الموجه للعرب والمسلمين يقول[57]: «انصحوا المبهورين بحضارة الغرب أن يعيدوا النظر إليها، احذروا يا عرب يا مسلمين، احذروا أن تخلطوا تصوراتكم بالتصورات الأوروبية، أنتم أهل حضارة عريقة، وهي وإن لم تصل من الناحية المادية إلى مستوى الغرب، إلا أن فيها مقومات لا تملكها حضارة بلداننا الأوروبية. إن الإنسان حاول أن يؤله نفسه بواسطة العلم، والعلم وحده، ولكنه وجد حضارته التي بناها عليه أحقر وأقل قيمة مما كان يعتقد، فلا تتخلوا عن نزوعاتكم المكتسبة من تصوراتكم الإسلامية، ولا تتطلعوا إلى الحضارة الغربية تطلع الممجد لها، المعظم لشأنها، لأنها ستبلى».

---

(56) ابن زيد الزنيدي عبد الرحمن: «العولمة في مواجهة الصحوة (7) ما الذي ينبغي للأمة عمله تجاه العولمة؟» **مجلة الدعوة**، عدد 1725، 1420/2000، ص14، نقلاً عن الميلاد زكي: المسألة الحضارية، ص8.

(57) نقلاً عن عرسان عقلة: ثقافتنا والتحدي خطابنا وخطاب العصر، هامش 9، منشورات اتحاد الكتاب العرب دمشق 2000.

ونداء روخاس تؤكده هذه الواقعة التي رواها عبد الحميد الغزالي بقوله: «بعد سقوط الاشتراكية وتبني جورباتشوف البيريسترويكا، التي أراد من خلالها أن يبحث عن طريق غير الرأسمالية؛ لأنه أعلم بمشاكلها ـ أرسل وفداً ليدرس النظام الإسلامي للاستفادة منه، وشكلت لجان في مركز الاقتصاد الإسلامي التابع لجامعة الأزهر من المتخصصين، وعكفت هذه اللجان على صياغة برنامج متكامل للنظام الإسلامي في شكل بنود وفقرات، قدمنا فيه نظاماً اقتصادياً تشغيلياً، يبدأ بفلسفة النظام والعمل والأجور، ونظام الملكية المتعددة، والاستهلاك، والاستثمار، والادخار، والشركات، وصيغ الاستثمار، والسياسة النقدية، والسياسة المالية إلى آخر مكونات النظام الاقتصادي الفاعل.

وعندما قدمنا هذا النظام للوفد، تساءل رئيسه الوزير «بافلوف»: «لديكم مثل هذا النظام، وأنتم على هذه المسألة من التخلف؟». وأسندت أمانة المؤتمر الرد إلي فكان ردي: «لأننا بعيدون تماماً عن هذا النظام».

ولكن توالت أحداث تفكك الاتحاد السوفيتي، ولم تجد القيادة الروسية الفرصة للاستفادة من هذا المشروع، الذي أصر الوفد الروسي على مناقشته تفصيلاً في جولة ثانية في موسكو... إلا أن الجولة المقترحة لم تتم بسبب هذه الأحداث[58].

إن الباحث يدرك مدى شدة الصعوبات التي تقف حائلاً دون تحقيق هذه التطلعات، وغير أنه يرى أنها ليست مستحيلة إذا ما توافرت العزيمة لدى أصحاب القرار في الأمة العربية الإسلامية على تحقيقها والتنسيق الفعال بشأنها. وكما سبق ذكره، فإنه لا خيار للأمة اليوم في تجاهل عولمة الثقافة إذا أرادت أن يكون لها دور في عصر العولمة الحالي.

4 ـ توجيه الإعلام لخدمة الثقافة العربية الإسلامية:

وبالرغم من أهمية جميع المجالات التي تمت الإشارة إليها، فإن الإعلام

(58) نقلاً عن المشرف، مرجع سابق.

يبقى المجال الأهم فيما يتعلق بعولمة الثقافة، لأنه الجانب الأول الملاحظ والمرئي من قبل الآخرين وهم ينظرون إلى الثقافة العربية الإسلامية، سواء بالسلب أو بالإيجاب، فهل الإعلام الحالي في الدول العربية الإسلامية قادر على خدمة عولمة الثقافة العربية الإسلامية؟ يجيب زكي الميلاد على هذا التساؤل: «المشكلة التي تمثلها معظم أجهزة الإعلام في الدول العربية الإسلامية أنها أجهزة لا تنتمي إلى الأرض التي وجدت عليها، ولا إلى ثقافة الأمة التي تخدمها. فأغلبها يدار بسياسات تتناقض مع أصول الثقافة الإسلامية، فهي بدلاً من أن تنشر هذه الثقافة في مجتمعاتنا، وتنقلها إلى المجتمعات الأخرى، تعمل هذه الأجهزة وكأنها وكالات إعلامية وثقافية، أقيمت في البلاد الإسلامية، لخدمة الثقافات المتناقضة مع الثقافة الإسلامية. فبرامجها مبنية على أصول مادية للحياة، وعلى أن الدين الإسلامي ليس مرجعاً تشريعياً للنظام وعلى أن الحقائق والأخلاق، ليست مطلقة، بل نسبية، وعلى أن الدين لا شأن له بالحياة»[59].

ويضيف قائلاً: «وبما لا يدع مجالاً للشك أن الإعلام العربي الإسلامي لا يزال غير مقنع: فزيادة على كونه لا يمثل الثقافة العربية الإسلامية تمثيلاً صادقاً وشاملاً، فإنه فيما يمثل هذه الثقافة لا يقدم شيئاً مقنعاً يتسم بالعمق ويحظى بالقبول والتقدير. هذا من جهة ومن جهة أخرى فإن المضادات الثقافية للثقافة العربية الإسلامية تملأ مساحة كبيرة من الإعلام العربي الإسلامي وخاصة في القنوات الفضائية، التي تتبارى في عرض ما يدعم الثقافة الغربية. ومن جهة ثالثة، فإن كثيراً من العاملين في مجال الإعلام لا يمتلكون الرؤى الثقافية العربية الإسلامية، وإن كانوا يمتلكون المهارات الإعلامية. كما أن كثيراً من أولئك الذين يمتلكون الثقافة العربية الإسلامية يفتقدون المهارات الإعلامية اللازمة لعصر الفضائيات»[60].

لقد اتضح ما سبق إذن أن الإعلام العربي الإسلامي يعاني من القصور في

---

(59) زكي الميلاد، مرجع سابق.

(60) نفس المرجع.

الشكل وفي المضمون، ويعاني من فقدان الصبغة العربية الإسلامية، بصورة كبيرة وواضحة، الأمر الذي يتطلب تدخلاً عاجلاً من قبل المسؤولين عنه، لتصحيح مساره، وإعطائه تلك الصبغة وإكسابه الأساليب والتقنيات الحديثة المتطورة، وعند ذلك فقط نستطيع القول بأنه إعلام مهيّئ لعصر عولمة الثقافة بوجه عام وعولمة الثقافة العربية الإسلامية بوجه خاص.

5 ـ تبني استراتيجية الفعل بدلاً من استراتيجية رد الفعل:

لعل من أهم ما يميز أجهزة الثقافة والإعلام في الدول العربية الإسلامية، أنها تتصرف حيال القضايا التي تواجهها وفق استراتيجيات رد الفعل[61]. وذلك حينما يتناهى إلى أسماعها أن فيلماً سينمائياً أو مسلسلاً تلفزيونياً، أو رواية ما، أو إعلاناً ما، في مكان ما في العالم، قد أساء إلى الإسلام، أو إلى أحد شخصياته ورموزه. عندها تهب الدوائر الثقافية والإعلامية في البلدان العربية الإسلامية، وبعد فوات الأوان، للرد على هذه الإساءة والتصدي لها، عبر ما هو متاح لهذه الدول من وسائل واتصالات دبلوماسية وغير دبلوماسية.

هذا الدور وفق استراتيجية رد الفعل، غير مجد في عصر العولمة. إن الوضع العالمي الجديد يتطلب التحول السريع إلى استراتيجية الفعل وفق خطط وبرامج مسبقة ومدروسة، لاستشراف مستقبل العالم، وتحديد المواقع التي يحتمل أن ينطلق منها الخطر على الثقافة العربية الإسلامية، والقيام بالتحصينات اللازمة بل والتخطيط للهجوم قبل تلقي الصدمات الثقافية التي توجه إلينا. إن الأمة العربية الإسلامية اليوم على مفترق طريقين لا ثالث لهما: فإما أن تذوب في الثقافات الأخرى وتستسلم لثقافة العولمة وإما أن تصمد بأصولها وثوابتها وتنافس على المواقع الأولى بين ثقافات العالم وإذا اختارت الطريق الثاني فإن عليها أن تهيئ الأسباب وأن تحشد الطاقات لكي تضمن موقعاً متقدماً لها بين ثقافات العالم، في حاضر سريع التغير، ومستقبل قريب الوقوع[62].

---

(61) نفس المرجع.

(62) نفس المرجع.

استنتاج:

يقول مهاتير محمد، رئيس وزراء ماليزيا وهو أقدر من خبر العولمة عن قرب سواء من الناحية المعرفية أو من الناحية السياسية والاقتصادية، في محاضرة ألقاها في 24 يوليو عام 1996: «إن العالم المعولم لن يكون أكثر عدلاً ومساواة، وإنما سيخضع للدول القوية المهيمنة. وكما أدى انهيار الحرب الباردة إلى موت وتدمير كثير من الناس، فإن العولمة يمكن أن تفعل الشيء نفسه وربما أكثر من ذلك... في عالم معولم سيصبح بإمكان الدول الغنية المهيمنة فرض إرادتها على الباقين، الذين لن تكون لهم أفضل مما كانت عليه عندما كانوا مستعمرين من قبل أولئك الأغنياء»[63].

هذا الكلام الخطير جدير بأن يأخذ بعين الاعتبار لأنه لم يصدر في الواقع عن شخص معروف عنه الانغلاق والانزواء ولا من شخص مهووس بالغرب وقيمه، ولا أيضاً من ساذج لم يدرك من الوجود إلاَّ ظاهره البسيط، وإنما هو رأي صادر من منظر مثقف ورجل دولة مسؤول وشخصية من أكثر الشخصيات السياسية، الثقافية والاقتصادية احتراماً في العالم إن لعالم العربي والإسلامي اليوم أمام تحديين كبيرين: الأول هو التحدي المتمثل في الحفاظ على الهوية الثقافية في الشكل والمضمون، والتصدي لكل ما هو خطر عليها والثاني هو الاستعداد لعولمة الثقافة العربية الإسلامية في عصر لا يعترف بالضعيف ولا يحترم الثقافات التي يتخلى عنها أهلها. فكيف نحافظ على ثقافتنا؟ وكيف نحميها؟ ينبغي على أصحاب القرار في الأمة العربية الإسلامية وقواها الحية أن يدركوا أن الحفاظ على الثقافة العربية الإسلامية بجميع مكوناتها وتوفير الحماية لها، لا يتأتى إلا عبر تبني استراتيجية الفعل، والتي تحقيقها ونجاحها يرتبط أساساً بمدى فهمنا العميق لقوانين العالم وقواه ومعارفه وأدواته وسبل الأداء

---

(63) نقلاً عن التويجري، مرجع سابق.

الناجح في ميادينه والاستجابة لتحدياته ومن ثمة المشاركة في بناء حضارته باقتدار ونجاح لنحمي أنفسنا بل البشرية من حولنا[64]. سبيلنا إلى ذلك هو العلم الإيمان والعلم والعمل بهما، وتدبر قوله تعالى: ﴿يَٰمَعۡشَرَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ إِنِ ٱسۡتَطَعۡتُمۡ أَن تَنفُذُواْ مِنۡ أَقۡطَارِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ فَٱنفُذُواْۚ لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلۡطَٰنٖ﴾[65].

(64) عرسان، مرجع سابق.

(65) سورة الرحمن، الآية: 33.